

الانسان والعجاوات

بقلم حضرة سليمان افندي ابي عز الدين

قد أدى البحث الحديث إلى تقرير مقام الانسان بين المخلوقات وهي الفصالة التي نشدها العلماء طويلاً. ولما كان البحث عن ماهيته براجعة جميع السلسلة الحيوانية من الأدنى إلى الأعلى متذراً رأينا ان نكتفي بذكر علاقته مع باقي الحيوانات من باب التليح والاماع . فانه وان لم يميز بعد بان من مقتضيات الطبيعة وجود سلسلة متدرجة تباين الحيوانات شكلاً واختلاف مفاصلها واعضاءها وافضلية الواحد منها على الآخر مما يحمل على التفريق بين افرادها وتخصيص كل نوع منها بمنزلة . ويقال بنوع عام ان تركيب الحيوان فيه دلالة على طبائعه فالمواد اللطيفة اذا لم تعضدها عظام داخلية او اصداق خارجية لا يتكون منها سوى بعض الحيرانات المائية او الحيوانات البرية التي لا تستطيع المعيشة الا في احوال متائلة . وهذه الحيوانات قليلة الحركة والنشاط . ومن المقرر ان الحيوانات البرية الخالية من الهيكل العظمي تكون صغيرة الحجم والهجربة الخالية منه قد تكون كبيرة الحجم ذات اطراف طويلة تديرها حسب تشاء وتركيبها هذا يعينها على الحركة . اما ذوات الاصداف فيشبه اجسامها ثابتة لا تغير والاصداق تقيها من العوارض والصدمات التي تطرأ عليها من الخارج الا انه اذا زاد حجمها عن حد الاعتدال يكون مانعاً لها من الخفة والنشاط وداعياً الى الخمول . وقد تقع هذه العوائق في ذوات الفقرات كما في التماسح عند خروجها من المياه غير ان السلسلة الفقرية داخل الجسم العظمي اكبر فائدة من الاصداف الخارجية لانها تحمل الاجزاء اللطيفة ويبقى جسم الحيوان معها على شكل واحد لا يتغير ومع هذا ففي بالنسبة الى اجسام الحيوانات صغيرة الحجم وبينها مادة لدنة تخفف من قوة الصدمات عند الوثوب والانحدار وبها تسهل حركة الاضغناء فيتمكن الحيوان من سرعة الحركة بلا تكلف

هذه هي المزية الاولى التي يمتاز بها ذوات الفقرات ومنها الانسان فضلاً عن ان اجسامها قد تبلغ حجماً كبيراً وكبر الحجم تبعه في الغالب شدة القوة وطول العمر ولا يخفى ان تثقيف الانسان وتأهيله للاعمال لا يتيسر ما لم يكن بالغا حداً معلوماً في بنيتة وقوته الجسدية ولو كانت قوى الانسان منخطة عمماً هي عليه لما اقتضت النتيجة على تحمله وهبوط مقامه . واذا قابلنا قوته الجسدية بقوى سائر الحيوانات وجدنا الحشرات وحيوانات اخرى غيرها تتوقه قوة بالنسبة الى حجمها لكن حذقه واقداره على استعمال الآلات يعينانه في اعماله اكثر من

قوته الجسدية فالتلمذة مثلاً وان تكن قادرة على العمل لا تستطيع الحراثة وحفر المعادن وغيرها ولا صنع الآلات والعمل بها . ومن المعلوم ان الصنائع والاعمال التي عليها مدار العمران تتطلب القوة الجسدية فالاقزام ولو توفرت فيهم الخفة لا يبلغون مبالغ غيرهم من بني الانسان في التمدن الذي اسسه تسهيل رفع الاثقال ونقلها . فبالقوة تيسرت المواصله بين الاقطار المترامية الشقة واستولى الانسان على كل صعب فاذله وبالقوة توصل إلى كل ما فيه خيرٌ وصلاح شانه ولو كان عزيز المطلب عسر المثل

ولذوات الفقرات مزية اخرى تمتاز بها على غيرها من الحيوانات وهي طول العمر فالحيوانات الخالية من سلسلة فقرية او هيكل عظمي كاللحشرات مثلاً تكون قصيرة العمر وفي خلال عمرها القصير يطرأ عليها المسخ فيتغير شكل جسمها وتقر على ثلاثة ادوار تكون في الدور الاول دوداً وفي الثاني زيباً وفي الثالث فراشاً قصير العمر . والمسوخ من ملازمات هذه المغلوقات الصغيرة الحجم وقد تستطيع دفع الفواعل الخارجية وما يعتور داخلها من التغيير وقد لا تقوى على مقاومة الاضطلال الطبيعي في حال راحتها بل توقفت الى حين بما يصيبها من التغير المتواصل ويتعذر ارتفاعها العقلي لسرعة انصرام اجلها كما ان سرعة نشوئها ونموها وهرمها تمنع ارتفاعها المدركة ايضاً وهذه القوى تقوى في ذوات الفقرات بانفساح اجلها ونموها نمواً قانونياً بطيئاً

وقد يظهر لاول وهلة ان الانسان لا يفوق كل الحيوانات في اعتبار من الاعتيارات الالفة الذكر لان كثيراً من الحيوانات الداجنة اكبر منه حجماً والوحوش وبعض افراد الطيقة الدنيا من الحيوان تعمر اكثر منه والقرود يفوقه خفة ونشاطاً . لكن اذا انعمنا النظر لم يخف علينا امتياز ينبت على نية غيره من الحيوان فانه يشترط في ضخامة الجسم ان لا تتجاوز حداً معيناً والآن انقلب النفع ضرراً وخرجت عن الشروط المقتضاة لنمو ذوات الفقرات وتحسين معيشتها وارتفاعها . فالحيوانات الضخمة تكون شديدة القوة غير انها لا تستفيع بقوتها ليطة حركتها او تحركها في جهة واحدة فقط حتى لا يبق في امكانها استعمال قوتها دفاعاً عن نفسها في اية جهة هوجت منها . فانيل وفرس البحر ضخما الجثة شديدا القوة غير ان قوتيهما سبب للضرر لا للنفع اما ما يعمله الفيل من الاعمال فانما يباشره بخرطوميه المتحرك ويؤيد عنه من احذق الحيوانات لا يجتنب الهائلة وهامه الكبير

فبالجملة يمكن ان يقال ان القوة والبطء من خواص الحيوانات الكبيرة الحجم والضعف وسرعة الحركة من خواص الحيوانات الصغيرة اما الانسان في درجة وسطى وهو ايضاً بين

بين من جهة التعمير اذ ان من الحيوانات ما تمدُّ ايامه على الاصابع ومنها ما يعمر اطول من الانسان . فالفتة الاولى لا يتبها لها الاخبار ومشاهدة الحوادث الطبيعية المتواترة والثانية ينيف عمرها على ما يقتضيه اخبار الاحوال والتأدب بها . ومتى تجاوز الحيوان سنّاً معلوماً قد لا يقع له بعده حادثة غريبة او امر جديد بل كلما حال حول كرت معه نفس الحوادث التي جرت في سابقه فلا تأتيه الحياة بلذة ولا يجني منها فائدة . والانسان من هذا القبيل اسعد المخلوقات لانه معتدل العمر مستوف فيه جميع اللذات وان اسف احياناً لتقصير حياته بالنسبة إلى بعض العجاوات مع طول آماله فقد يجد لذة بالتعلل بتلك الآمال ولو انها ليست الا كطيف خيال . وحياة الانسان وان طالت اكثر من الامد المعلوم لا تزيد في لذاته بل تنقصها وهو ملاقي في حياته هذه المسرات والارتقاء عقلياً وادبياً اكثر مما تلاقى باقي الحيوانات ولو كانت اطول منه عمراً

اما اسباب طول الحياة فغير مجزوم بمعرفتها تمام المعرفة لكن قد يعرف شيء من حياة الحيوان من احواله الظاهرة فمن المعلوم ان الحركة الكثيرة المستمرة تنفي المواد الآلية وتجعل انصرام الاجل . فالحيوانات العداءة كالكلب والارنب والغزال اقصر عمراً من الانسان ومن اكثر السباع ايضاً وهذه السباع وان جدت في الاجتراح لا تكثر الحركة كذلك ولا يعاني النسر العزوم مع سرعة طيرانه ما تعانيه العصافير الصغيرة الكثيرة الحركة وحياته اطول من حياتها اما الحيوانات البرية البحرية فالسبوتة منها خصوصاً تعمر طويلاً لبطئها وبرودة دم بعضها فما تقدم اعبارها يكون الانسان ارفع مقاماً من جميع الحيوانات لانه اصلها بنية متجمع القوة والحركة والنشاط باعندال وتناسب عييين وكها راضحة صاغرة لسلطة العقل الذي يتولى قيادها بدرائمه

وما كانت الاحوال الخارجية لتجور عليه فتصفده باغلاما نظير سائر الحيوانات التي ترسف في قيودها فهو يعيش حيث شاء مغالباً حمارة القنيط وصبارة القر يطيوي اليد ويتسلق الجبال ويخترق البحار مختاراً لنفسه ما يحلوه من البقاع بلا مانع يصرفه عنه ولا حاجز يعيقه عن الوصول اليه . لاجار من الحيوان يتنازع في سكناه ولا الطبيعة تضرب له حداً لا يتعداه خلقة لغيره . من الحيوانات التي منها ما يعيش في جسم غيره لا يتجاوزة الى سواه ومنها ما يسكن بقعة من الارض لا يفارقها مضطراً بحكم الاحوال الخارجية كالحر والبرد وسهولة البلاد ووعورتها إلى غير ذلك . فالحيوانات في القطبين تختلف عن التي في المناطق الحارة والمعتدلة . والقائنة الجبال والاماكن الوعرة تغاير الشوطنة الاودية والسهول ويحول دونها

احوال أخرى تجسها في أماكنها بحث لا تستطيع منها برحاً . اما الانسان نخلي البال ههزا
بهذه الصعوبات ويعد نفسه ويعودها على جميع الحالات

ثم ان ذوات الفترات تنقسم الى طائفتين كبيرتين احدهما اكلة اللحوم والاخرى اكلة
الاعشاب وسكل منها استان وجهاز هضمي تناسب الطعام الذي يتتات به . اما الانسان
فياكل اللحوم والنبات او كليهما اذا شاء واستانه وجهازه الهضمي مساعدة على مضغ النوعين
وهضمها على السواء . والاطعمة التي يتغذي بها تنفق في توليد حرارة الجسد والتعويض
عما استهلكه العمل واما الفضلة فتكون تارة قرراً على الاجيزة الغذائية وتسبب الامراض
الكثيرة وطوراً تكون سبباً لزيادة قوة الجسد

والطعام اللازم لتوليد الحرارة في الجسد وتعويض المستهلك منه محدود الكمية اذا زاد
عاد بالضرر على الجسد على ان هذه الضرر يمكن ان تندفع فتقلب نوعاً بمزاولة الرياضة التي
تقوي الامتصاص وتصرف زيادة الغذاء الى تقوية الجسد . والاصح لاعندال الحرارة في
الجسم الاغذاه بالاطعمة النباتية في الاقاليم الحارة والحيوانية الدهنية في الاقاليم الباردة .
ومن ظن بعضهم ان الاطعمة الحيوانية افضل من الاطعمة النباتية وان القوى العقلية تقوى
وتضعف بحسب ما يكون من اخيار احدها . وقد لا يخلو ظنهم من الصحة لكن ليس الى
الحد الذي توهموه فالتور يتغذي بالمشب والكلاء وفيه من القوة والجرأة والشراسة ما في
السباع ومثله الفيل والذب مع ان معظم قوتها من المواد النباتية . والضعف وان كانت من
سباع الوحش لا تتأثر عنها شدة وجرأة . ورب قائل يستشهد بالاسد فيرد ان شدة فتكه
وبطشه لا تنشأ عن الاطعمة اللحمية اذ شوحد ان قوته وشراسته تبلغ اشدها في حالة
الجوع والغب ولو كانت اللحوم الفاعلة لوجب ان يكون وقت الشبع اشد واجراً منه وقت
الجوع . وليست النباهة والنشاط في الحيوان من نتائج الاطعمة اذ يوجد بين اكلة اللحوم
واكلة الاعشاب حيوانات نبيهة وخاملة سريعة الحركة وبطيئتها فلو كان للغذاء تأثير خاص
لما اختلف النوعان في كثير من الخواص بل كان كل منهما تترد بخواص تميزه عن الآخر
ولا اجتمع النقيضان في واحد منهما . على انه ليس بعسير على قدرة الخالق التقدير ان يرزق
كل فرقة جميع درجات القوى العقلية سواء كانت سامية او منخطة . وعليه ان الفرق بين
الحيوانات لا يتوقف على نوع ما ككلها بل على ما اخضعت به كل طائفة خلقاً على ما مر في
الامثلة السالف ذكرها

واذا قيل انه مسلم بان جودة الطعام لا تربي القوى العاقلة ولكنها تولد البأس والنشاط

فقولهم هَذَا يندفع بالالتفات إِلَى الشعوب المختلفة وتنفد اشدها بَأْسًا واصعبها مرأسًا حيث يرى السبق في هَذَا المنظار لأولي النكد والتعب الذين اعتادوا ملاقاتة الصعاب ومعاناة الاتعاب لا الذين انغمسوا في الشهوات وانهمكوا في الملذات . لان الجرأة صِيْغَةٌ طَبِيعِيَّةٌ تجيدها الحنكة مع الايام ولا يد للطعام في توليدها فهي لتقوى بملاقاته الاحوال وتضعف بمجاورة الاندال . نعم ان للاطعمة تأثيراً لا ينكر وقد اثبت بعض العلماء « ان الاغذية النباتية كالخنطة والارز والعدس والحصى والفاكهة اليابسة كالكتين والزبيب والتمر وغيرها انسب للصحة من الاطعمة الحيوانية كاللحم وغيره وان الافراط في اكل اللحم مضر بالصحة وان انسب الاغذية الحليب واللبن والجبن والسمك وان بقية اللحوم قد تؤدي الى اسقام كثيرة اكثرها معدية . » وقد عُرِفَ بالاخبار ان الاكثار من الطعام واللحم خصوصاً بلا رياضة تقابلها ثقل الجسد وتورث الخمول فتدعو الى اضطرابات داخلية دائمة اما اذا اجتمعت الرياضة الكافية والاطعمة اللحمية فیتولد عنها اعظم قوة يمكن الحصول عليها وهذه الرياضة مع الاقتصاد في المآكل بشرط كفايتها لاعالة الجسم تربي اجساماً عضلية قوية عن احتمال المضاعب والمشقات . ويرجحون انها تمدد نسجة الحياة ايضاً اما الرياضة بلاغذاء كاف تجديده ما تهدم من الجسد فتأتي بالهرم السريع قبل اوانه لكن لم يعلم ان احداً ضعفت قوَاهُ بالاغذاء المواد النباتية كما ان القول بتوقف الارتقاء العقلي على جودة الغذاء لا تؤيده خبرة ولا يشته برهان . غير ان الاختبار قد اثبت ان بعض الناس الذين عاشوا اعواماً في الكهوف المظلمة يقتاتون بالخبز الكبير فقط كانوا اسمى عقلاً واشد اقتداراً من اعظم رجال هذا العصر الزائعين في ارغد عيش يتقلبون على مهاد التعم والرفاه . فاباحة جميع الاغذية للانسان وعدم اقتصاره على نوع خاص منها لما يسهل عليه السكنى في اي اقليم كان وقد تبانت الآراء في تقرير ما يمتاز به الانسان عن الحيوان الاعجم فذهب قوم الى انه يمتاز بانتصاب قائمته بحيث يعاين نجوم السماء واقارها وقال غيرهم ان انتصابه على قائمتين فقط دليل اوضح على امتيازهم وكلا الفريقين لم يصب الغرض لان ذوات الاربع تشارك الانسان في التمتع بتلك المشاهد والطيور تضارعه في الوقوف على القائمتين لكن الفارق بينه وبينها ان يدي الانسان مظلفتا الحركة ووظائفها متعددة خلافاً للحيوانات الثديية التي لا يتيسر لها ذلك ما لم تكن منتصبه القائمة

ويزعم بعضهم انهم يستدلون من ظواهر هيئة الانسان على اخلاقه . على انهم اذا اصابوا مرة اخطأوا مراراً لان الاختيار لم يثبت علاقة الشكل بالعقل ودلالة الظاهر على الباطن

فكم من متقاربين شكلاً يثنيان خلقاً وفعلاً . ولا شك في ان البارئ جل وعلا خلق الانسان في احسن تقويم وفضله بجمال الصورة على جميع المبروات غير انه لم يجعل الجمال قصداً غائياً اذ لو اقتصر عليه لفخره في ذلك البلور والازهار المختلفة الالوان التي كساها الرحمن جمالاً بارعاً يفوق جمال الانسان فما الانسان بلا قس الا بمجموع مرتفعات ومنخفضات لا يظهر جماله وجلاله حتى تبدو عواطفه الشريفة يزينها العقل بميزان العدل

وقد برأ الخالق اجسام الحيوانات واعضاءها متطبقة على الاحوال التي تعترضها في ادوار الحياة وكساد تنوياً ثقيها من العوارض الخارجية وجعل ما كان من عظامها عرضة للصدمات لدناً وما احتجب عنها سريع انعطاب والانكسار . فما سر بيانه بالابحاز في حذر الجمالة بدل دلالة صريحة على امتياز الانسان عن العجاوات ويوضح باجلى بيان حكمة المكون الحكيم مبدع المخلوقات

الحمام واقوال العرب فيه

الحمام وما كان من جنسه كالبيام والقمري والاطرغل (الترغل) طائر معروف . وليس الغرض من هذه السطور ان زبده تعريفاً او ان تقيض في وصفه بل ان نلخص ما قاله فيه المتكلمون في طبائع الحيوان من كتاب العرب كالجاحظ والدميري والقزويني وتميذاً لذلك نلخص ما قاله فيه المتكلمون في طبائع الحيوان من الاوربيين . قالوا :

الحمام يمتاز على غيره من اجناس الطير بمزايا ظاهرة في خلقته حتى لا يسر تمييزه من اول وهلة . وكفه معتدل الرأس جميل العنق مندمج الجسم على منقاره عند منبته جند لين فيه منقراه . يمش الماء عباً كالذباب ولا يحسوه حسواً كاللدجاجة والعصفور فلا يرفع منقاره من الماء حتى يروى . وعلى رجليه فلولس مسدسة وقد يكون عليهما ريش كثيف وقد تكونان عاريتين . وفي كل قدم اربع اصابع على استواء واحد تنصلح رجلاه للشي وللجثوم . واكثر الحمام قوي الجناح سريع الطيران الا للدودو الا في ذكره فانه قصير الجناحين لا يطير وكذا الحمام الفرد (سوليترا) . وللحمام حوصلة كبيرة نصير غذية القوام زمن التفريخ ويفرز منها سائل لبني يسميه العرب اللبأ يربط به الطعام الذي يزق فرخه به . وهو اכול فقد تأكل الحمامة في يومها ما يزيد على جسمها ثقلاً . ويبقى الذكر مع الاثني مدى الحياة لا ينفصلان (وذلك في الوحشي لا في الاهلي) ويشترك كلاهما في بناء العش وحض البيض وزق الفراخ . وتخرج الفراخ من البيض عارية تحتاج الى عناية والديه . ومنقار الفرخ كبير لحمي تدخل